حولية الكوفة

دورية سنوية، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد الخامس ـ شهر رمضان ـ ١٤٣٦ هـ / تموز ـ ٢٠١٥ م

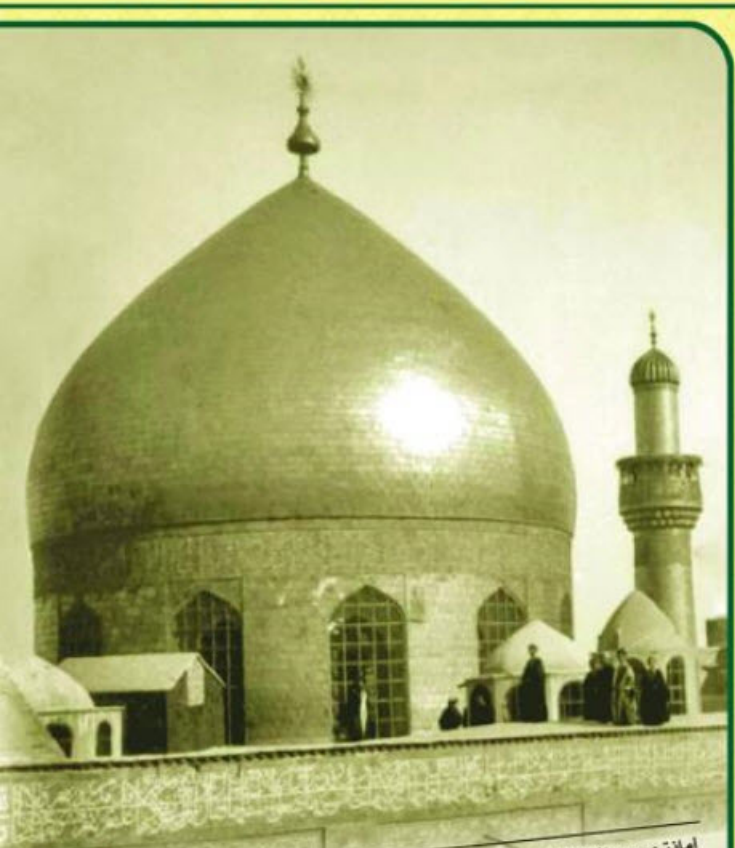

أمانة مسجد المعظم تحتفل بمناسبة مرور ١٤٠٠ عام على اختيار الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)
الكوفة عاصمة لحكومته المباركة عام ٣٦ للهجرة

٥

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

جهود علماء الكوفة في النقد الأدبي واللغوي في القرن الثالث الهجري - ثعلب الكوفي (ت٢٩١هـ) أنموذجاً -

الأستاذ المساعد الدكتور حسين لفته حافظ(*)
مركز دراسات الكوفة / جامعة الكوفة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام علي خير الأنام محمد الأمين وال بيته الطاهرين وأصحابه الغُر الميامين وبعد...

لم يكن النقد الأدبي واللغوي جديدا على الدرس النقدي العربي إذ ترجع أولياته وبواكيره إلى العصر الجاهلي، وقد حفظت كتب الأدب صورا من هذا النقد فقصة النابغة الذبياني مع أهل المدينة وقصته مع حسان بن ثابت ذائعتان معروفتان(١).

ويعد الجهد النقدي الذي خلفه علماء الكوفة في القرن الثالث الهجري جهدا نقديا لا يستهان به ويستحق الدراسة والتأمل لأنه يحتوي على آراء نقدية قيمة تركت بصماتها في تطور النقد العربي القديم، أما عن نموذج الدراسة فقد وقع الاختيار على عالم كبير يعد رأس المدرسة الكوفية، هذا العالم هو أبو العباس احمد بن يحى الملقب بـ (ثعلب الكوفي) وهو احد أعلام اللغة والنحو في القرن الثالث الهجري وقد اشتهر بالعديد من مؤلفاته في شتى صنوف المعرفة كما اشتهر بآرائه اللغوية المتميزة في عصره، وموضوع الدراسة يتناول جهود هذا العالم النقديّة في مجال النقد الأدبي واللغوي فقد أدرك ثعلب الكوفي أهمية النقد اللغوي والأدبي وعلاقته الوثقى بسلامة الشعر وفهمه ولذلك أولاه عناية خاصة وشغل حيزا كبيرا من كتبه ومنها (مجالس ثعلب، وشرح الفصيح، وقواعد الشعر، وشرح ديوان الخنساء، وشرح ديوان الأعشى).

لقد فهم ثعلب الكوفي قديما سر جمال العربية، وقرر أنها لغة غنيّة بألوان الجمال، فلها قواعدها المحكمة، وتصاريفها المتناسقة واقيستها المطردة، إلى غير ذلك من العناصر التي من اجلها تفوقت على كل اللغات ومن خلال تتبع الخصائص الجمالية للغة عند الثعالبي نلمسها في البحث عن الكلمة المفردة ومدى صحتها وفصاحتها وملاءمتها لمكانها من السياق، واستعمالها الأدبي، كذلك نلمسها في التركيب ومدى ما فيه من انسجام وقوة سبك أو ما فيه من هنات وقصور والتواء وتنافر واضطراب يحول بينه وبين الجمال الفني.

أما عن منهج الدراسة فقد اتبعت فيه أحيانا المنهج الوصفي وفي أحيان أخرى كنت اتبع المنهج الفني من خلال دراسة آراء الناقد وتقسيمها إلى قسمين هما:

النقد الأدبي ليشمل مجموعة قضايا نقدية عالجها الناقد منها قضية الموازنة والطبع والصنعة والسرقات الأدبية والابتكار والتقليد في المعاني الشعرية وقضية الرواية ونسبة الابيات الشعرية وتناول البحث ايضا قيمة اللفظ والمعنى عند ثعلب الكوفي.

والقسم الآخر تناول أهم القضايا النقدية التي تخص النقد اللغوي نحو: شرح المفردات وعلاقته بالمعنى الشعري و بنية الكلمة الصرفيّة ومفهوم القصد فقد استولى الاهتمام بالقصد على عملية النص الشعري وعلى شرحه أيضا واقترن القصد بالمعنى عند ثعلب الكوفي من خلال تناوله لبعض الدواوين الشعرية بالشرح فقد كانت قراءته في بعض الأحيان قراءة مفسرة أي إنها تسعى إلى إزالة العقبات اللغوية التي تقف أمام فهم النص.

أما عن مصادر الدراسة فقد تنوعت تلك المصادر لتشمل كتب الأدب والبلاغة والمعاجم العربية فضلا عن الدواوين الشعرية والدراسات النقديّة التي اهتمت بدراسة الحركة النقديّة وتطورها عند العرب، وأخيرا الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على نبيّه الأكرم وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(*) عن . . . (شرح عن اسم صاحب المقال).

(١) ينظر الأغاني للأصفهاني: ٩/١١، والموشح للمرزباني: ١٦٠

التمهيد:

تطور حركة النقد الأدبي واللغوي في القرن الثالث الهجري:

يلاحظ المتتبع للحركة النقدية في القرن الثاني للهجرة أنّ ذلك النقد ظل حتى نهاية القرن الثاني الهجري نقدا فطريا أساسه الذوق والانفعال بالأثر الأدبي، يكتفي بالبحث في الجزئيات فكان البيت الشعري أو اللفظة المفردة مدار نقد علماء القرن الثاني الهجري. وجمع ذلك الجهد النقدي بين النحو والتذوق البلاغي الذي اقترن بالنظر في النص القرآني، وما يحتاج إليه ذلك من شواهد من كلام العرب وأشعارهم. إلى جانب ذلك فإن النقد ظل عملا هامشيا عند أولئك النقاد وأكثرهم من علماء اللغة الذين انشغلوا برواية الشعر وتنقيته من المنحول، وشروح غريبه. وقد وصفهم الجاحظ بقوله: ((طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبه فرجعت إلى الأخفش فألفيته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فرأيته لا ينقد إلا ما يتصل بالأخبار ويتعلق بالأنساب والأيام)).

كان للمحاولات التي قام بها اللغويون والنحاة في ضبط الشعر وتنقيحه وتصفيته من شوائب اللحن والخطأ والتحريف والتصحيف وفي إخضاعه من ناحية الصياغة والأداء اللغوي والنحوي لكل ما تفرضه أصول اللغة وقواعد النحو والصرف أثرها في المحافظة على اللغة العربية عامة وعلى كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) كما كان لها أثرها في تطور النقد الأدبي فقد نشأت في البصرة والكوفة مدرستان كبيرتان شهدتا أوسع حركة علمية في هذا المضمار، ولمعت في سمائهما جمهرة من الأئمة الأعلام قاموا بالجهد الأكبر في جمع الأدب وروايته ودرسه وتحقيقه وتحريره من شوائب التحريف واللحن والخطأ ومن أشهر هؤلاء الأئمة أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد بن السائب الكلبي والمفضل الضبي وقد استقوا روايتهم من القبائل والاعراب البدو وقد اظهروا في عملهم مهارة منقطعة النظير.

وثعلب إمام الكوفيين في النحو واللغة، وهو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن يسار الشيباني، المعروف بثعلب، ولد في الكوفة على رأس المائتين من الهجرة ونشأ بها، والكوفة يومئذ مدرسة جامعة من مدارس العربية والشعر والأدب والنحو، وعلماؤها لهم منزلتهم العلمية عند العلماء ومكانتهم الكبيرة في قصور الأمراء والخلفاء والوزراء، أخذ حب العربية يغلب عليه، فعكف على دراستها وتفرغ لها وهو في سن السادسة عشرة، وما بلغ سن الخامسة والعشرين حتى طار صيته في النحو والعربية، وذاع ذكره، واختلف الناس إليه[1].

أخذ اللغة عن ابن الأعرابي المتوفى سنة مائتين وإحدى وثلاثين، وعن سلمة بن عاصم النحوي المتوفى سنة مائتين وسبع وثلاثين، وروى كُتُب أبي زيد الأنصاري عن ابن نجدة، وكتب أبي عبيدة عن الأشرم، وكتب الأصمعي عن أبي نصر، وكتب أبي عمرو بن العلاء عن عمرو بن أبي العلاء، وحفظ كُتُبَ الفراء كلها ولم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وكان يدرس كتب الفراء والكسائي، وخلف لنا كتبًا كثيرة من أشهرها (الفصيح وقواعد الشعر ومجالس ثعلب وشرح ديوان الخنساء وشرح ديوان الاعشى وسواها).

لقد نهض على أيدي اللغويين والنحويين ما بات يعرف بالنقد اللغوي، فالمعروف ان النقد في العصر الجاهلي كان يتسم بروح التذوق الذاتي، دون التعمق الى فهم الارتباط بين السبب والمسبب والعلة والمعلول ولذلك اتسم بكونه إحساساً فردياً وانطباعاً خاصاً، اذ كان الانتباه ينصب لبيت القصيدة والكلمة في البيت والجرس الموسيقي في القافية ثم للواقع الملموس المحسوس.

ومن الجدير بالذكر ان النقاد اللغويين والنحويين قد صرفوا عنايتهم الى لغة الشعراء ومتابعة ما في شعرهم من مواطن الخطأ التي تثير الخروج على أسس اللغة الصحيحة، وقد ذهب بعض الباحثين الى ان النقاد اللغويين استطاعوا ان يقودوا الحركة الأدبية ويتزعموها ويسيطروا على الأصول العامة ويجروا الشعراء إليهم حتى صار طابع شعر بعضهم شبيها بطابع الشعر الجاهلي.

ويعد ثعلب الكوفي واحدا من العلماء الذين اهتموا باللغة والنحو ولم تقف ملاحظاته عند حد المؤاخذات على الشعراء بل تجاوزت ذلك الى كثير من المسائل الفنية والنظرات الموضوعية التي تتصل بالإبداع الشعري في المعاني والأفكار والصور والخيال والإيجاز والإطناب والذكر والحذف وما الى ذلك من الأمور التي تتصل بالنواحي الأدبية والبلاغية والجمالية.

قد اختلف النقد في القرن الثالث الهجري القرن الذي عاش فيه ثعلب الكوفي عن سابقه القرن الثاني من حيث اتساع النقد ليشمل جوانب متعددة من الشعر فضلا عن الكتب النقدية المختصة التي وجدت في ذلك العصر اذكر منها كتاب ابن سلام (طبقات فحول الشعراء) وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ وكتاب البديع لابن المعتز، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة.

لقد اهتم ثعلب الكوفي بجمع الشعر العربي وذلك بقصد حفظ الشعر من الضياع ولما كان هذا الهدف كانت تواجهه بعض الأشياء الغامضة التي تحتاج الى شرح كالمفردات او الأعلام الخاصة بالأماكن او بعض الحيوانات وفي مجالسه نماذج كثيرة من هذا النوع، فضلا عن هذا قام ثعلب بتوجيه

(١) ينظر جهود ثعلب في بيان أثر الحركات في اختلاف المعنى: شادية بيومي حامد: ٣ - ١

أكثر الإشارات النحوية الغامضة من خلال إيجاد أكثر من مخرج لها، كذلك صنع ثعلب في البيت الشعري الذي غمض معناه وخفي على المتلقي لهذا اخذ يوضح معنى هذا البيت ويدلل على مقصد الشاعر منه.

ونظرا لمنزلة الألفاظ الشعرية وقيمتها الفنية داخل النص الشعري لهذا اخذ ثعلب يهتم بها كثيرا من حيث الصحة والخطأ.

وكان من آثار اهتمام اللغويين والنحاة ومنهم ثعلب الكوفي في تطور النقد ان نقدهم لمعاني الشعراء والوقوف على مواطن الإجادة ومواطن الخطأ فيها زاد من حرص الشعراء على معانيهم الشعرية والاهتمام بتلك المعاني.

اما عن ابرز القضايا النقدية التي عالجها ثعلب الكوفي في مؤلفاته فالمباحث الاتية تتكفل بمناقشتها.

المبحث الاول: قضايا النقد الأدبي والبلاغي التي أثارها ثعلب الكوفي:

اولاً: قضية الإسلام والشعر:

تحدث ثعلب عن هذه القضية واتسم موقفه بالاعتدال مبينا ان الإسلام لم ينتقص من شان الشعر انما كان يهدف الى ترويض النص الفني وتوجيهه الوجهة التي تخدم مبادئ الدين الجديد. فقد أثنى الرسول صلى الله عليه وسلم على: الشعر الحسن الذي يهذب النفس ويدعو للفضائل، ويدعم الإسلام ويرد على أعداء الله والدين.

استحث أنصاره للرد على المشركين بسلاح الشعر قائلاً: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟» فاستجاب له شعراء الأنصار: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. وقال: «اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليها من رشق بالنبل».

وكان يشجع الشعراء ويشد على أيديهم، ولحسان بن ثابت النصيب الأكبر من هذا التشجيع ؛ فوضع له منبراً يقوم عليه ليفاخر وينافح عن المسلمين، وسمح له أن ينشد في المسجد، وكان يقول له: «اهجهم – أو قال هاجهم – وجبريل معك»، ويدعو له بقوله: «اللهم أيده بروح القدس»[1].

إذن فالنبي الكريم لم يرفض الشعر وإنما رفض منه شعر الشعراء المجان الذين يهدمون القيم الفضلى، ذلك ما يؤكده استحسانه لقريض حسان وكعب وعبد الله بن رواحة ممن أذاعوا في شعرهم قيم الإسلام وتعاليمه واتخذوا ألسنتهم مجنا واقيا له ودرعا دلاصا تحميه من سموم ألسنة الأعداء وحدتها.

(١) مجالس ثعلب: ١/١٣٤-١

وقد نظر خلفاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الشعر نفس النظرة بل إن من بينهم من تناول الشعر بالنقد ووازن وفاضل بين الشعراء وأصدر أحكاما نقدية ما زالت تدرس إلى اليوم في الجامعات المختصة[2].

حدَّثنا أبو العبَّاس قال حدَّثني ابن شبة قال: حدَّثني إبراهيم بن المنذر الحزامي ثنا محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة قال: أنشد كعب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجده بالمدينة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

فلما بلغ:

إن الرسول لسيفٌ يستضاء به ... مهنَّد من سيوف الله مسلول

في صحبةٍ من قريشٍ قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كشف ... لدى اللقاء ولا ميلٌ معازيل

أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق أن يسمعوا شعر كعب بن زهير[3].

وفي نقله لهذه الرواية تأكيد واضح على منزلة الشعر في الاسلام وموقف النبي الاكرم منه وحثه على سماع الشعر الذي يحمل مضامين اخلاقية تنسجم وتعاليم الدين الاسلامي فمن حيث المضامين القصيدة تدور في أظهار القيم العربية المحمودة والتي اقرها الإسلام كالكرم والشجاعة والمروءة والحلم.

ثانياً: قضية الغرض الشعري:

تعرض ثعلب الكوفي للحديث عن هذه القضية في مجالسه مركزا الحديث على غرض المديح والهجاء والوصف والفخر، فضلا عن هذا تحدث ثعلب عن هذه القضية في كتابه قواعد الشعر الذي تكمن أهميته في محاولة دراسة النص الشعري دراسة علمية تصنيفية، مستعيناً بالمعارف التي عاصرته، وهو لا يخرج عن كونه مجموعة من الأصول والقواعد التي أخذ بها اللغويون أمثاله في أثناء تعرضهم للشعر، وحكمهم عليه باعتبارات لغوية. هذه الصفة العلمية أساسها اقتصار الكتاب على موضوع واحد هو الشعر، إضافة إلى التنظيم والتسلسل في التعامل مع الموضوعات البلاغية والنقدية التي يختص بها الشعر.

ويرى بعض الدارسين أن ثعلباً نفسه عُني بالشعر وشرحه، إذ عمل قطعة من أشعار الفحول، وكتب كتاباً أسماه

(٢) أ. د. حسن بشير صديق / الأدب العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي / الدار السودانية للكتب/ ص٦٣-٢

(٣) مجالس ثعلب: ١/١٧٦. -٣

معاني الشعر، وذلك كله ليس ببعيد عن عنوان مثل قواعد الشعر. ودراسة الكتاب نفسه تبين أثر ذوق ثعلب اللغوي، ويرى هذا الباحث ان أفقه المحدود في تأويل الشعر وفهم مراميه البيانية، وجوانبه الجمالية تقف وراءه أسباب عديدة، منها مثلاً، عدم تفرّغه للنقد الأدبي، واتجاهه المدرسي التعليمي، وكذلك ثقافته البدوية التي رسخت في نفسه من خلال تعامله مع اللغة والنحو واشتغاله بهما[1].

ومن صور اهتمامه بالغرض الشعري تنبيهه الى طبيعة الغرض الشعري الوارد في قول الخنساء:

اذا القوم مدوا بأيديهم الى المجد مدّ اليه يدا[2]

يقول ثعلب: مدوا ايديهم: وهذا في الفخر، وفي تناول مكارم الامور[3].

فهو يؤكد على مضمون الفخر الذي اشتمل عليه البيت الشعري، لأنه يعرف جيدا ان الشعراء العرب يهتمون به ويحاولون ان يضمنوه كل ماهو جديد من معاني شعريه.

لا شك في أن مفهوم الشعر يترابط ترابطا دقيقا بمتلقيه، إذ يجب أن يحقق أثرا فيه فالشعر «كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسب هيأة تأليف الكلام، أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها»[4].

ثالثاً: ثنائية اللفظ والمعنى:

تعتبر قضية اللفظ والمعنى من أهم القضايا النقدية التي استأثرت باهتمام النقاد والبلاغيين القدماء. فقد عالج النقد العربي القديم هذه الثنائية في سياق مباحث كثيرة ومتنوعة ومتداخلة تتعلق ببنية النص الشعري وجماليته وبالتداخل النصي والسرقات الشعرية وغيرها. ولا نريد هنا استعراض المواقف المختلفة لقضية اللفظ والمعنى فقد تصدى لها كثير من النقاد ودارسي الشعر. ولهذا سنقتصر على مناقشة موقف ثعلب الكوفي ومدى اتفاقه أو اختلافه مع النقاد السابقين خاصة أنه لا يقف على قضية نقدية معينة إلا ليعيد النظر فيها ومناقشتها وفق رؤيته الخاصة.

(١) ابو العباس ثعلب ناقدا، الدكتور سليم السلمي: ٢-١

(٢) شرح ديوان الخنساء: ١٤٥. -٢

(٣) المصدر نفسه. -٣

(٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ٧١. -٤

ومن الجدير بالذكر ان اهتمام ثعلب تركز حول مقياس الفصاحة وشروطها وفي عرف اللغويين أن المقياس هو «الأساس الذي نبني عليه ما نستنبطه من قواعد اللغة أو صيغ في كلماتها، أو دلالات في بعض ألفاظها». والمقياس أيضاً هو المكيال أو الميزان الذي يحكم به على صحة اللغة ألفاظاً وتركيباً[5].

والقصد عند ثعلب هو خلوص عربية المتكلم من الخطأ واللحن والعجمة وغيرها مما قد يشوبها أو يشينها بالإضافة إلى طلاقة اللسان وسلامة النطق وتنبه الدكتور محمود عبدالله الجفال الى موقف ثعلب ومفاده أن مدار الفصاحة في الكلمة على كثرة استعمال العرب لها[6].

رابعاً: قضية الوضوح والغموض:

تحدث ثعلب عن هذه القضية وحاول مرات عديدة ان يزيل الغموض الذي يصيب النص الشعري من خلال شرح وتفسير النص وذلك لان ثعلب يعرف جيدا ان الشعر ليس كغيره من الفنون الأدبية فهو فن يحتاج الى نوع من الثقافة تؤهل المتلقي لفهمه من خلال الاستعانة بالأدوات اللغوية والدلالية لاستخراج المعنى.

لاحظ ثعلب من خلال شرحه لدواوين الشعراء لجوء الشاعر إلى مفردات من اللغة، قليلة الاستعمال والتداول، لا في لغة الأحاديث اليومية في مجتمعه فحسب، بل وفي قصائد الشعراء المعاصرين، له، أو السابقين لعصره، بفترة قريبة أيضاً، ومهما كانت الأسباب الدافعة إلى استخدام ذلك النوع من المفردات، فإن الأمر الذي لا خلاف عليه، هو أن هذه الغرابة تضع حاجزاً بين الشاعر والقارئ، فتسبب ضرباً من الغموض، من هنا كرس ثعلب الكوفي جهوده لبيان معاني الشعر وخاصة الشعر القديم، تكشف عن ذلك نماذج من تفسيره للاشعار ومنها تفسيره لقول الخنساء

نصبت للقوم فيه قصد اعينهم مثل الشّهاب وهم شتىّ عباديدُ

لانهم يهتدون به، ويدلون به، أي نصبت لهم نفسك حتى ابصروك واهتدوا بك بعد ماكانوا شتى عباديد لا يجمعهم شيء.

قال عرام: عباديد، وهي لغته، متفرقون منهزمون.

قصد اعينهم، أي امَّ اعينهم، أي كنت لهم مثل الشهاب الذي يستضاء به، أي كانوا يعشون اليك، أي يقصدون اليك.

(٥) إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٥م، ص٨ وما بعدها. -٥

(٦) الفصيح، بتحقيق د. عاطف مدكور، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص٢٦٠. وانظر السيوطي: المزهر ج١ ص١٨٤-١٨٥. - مقاييس الفصاحة في القرن الخامس الهجري: ٦١٢

نصبت للقوم فيه: يريد في الثغر، يقول نصبت للقوم في هذا الثغر رجلا هو بمنزلة الشهاب فجعلته قصد اعين اصحابك، وانت ذلك الرجل.

هم عباديد: متفرقون، الواحد عبديد، قالوا: ذهبوا عباديد، اذا ذهب كل انسان على حدته.

قالوا: «نصبت أي عمدت نحو القوم بنفسك، واذا عمدت فقد نصبت»[1].

تحتل عناصر المعنى واللفظ والتأليف مراكز فعل الصنعة، والمحور الذي يدور عليه هذا الفعل هو إيفاء كل عنصر حقه قصد إحداث الائتلاف بينها جميعاً، إذ لا يتحقق الائتلاف في نظر ثعلب إلا بإيفاء العناصر حقها من الإتقان، فتبرز القصيدة مستوية الأعضاء عمقها روح وظاهرها جسم.

خامساً: قضايا النقد البلاغي:

وردت إشارات كثيرة عن ثعلب تتحدث عن البلاغة وأهميتها وخاصة الأسلوب البياني الذي يشتمل على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، فضلا عن مسائل التقديم والتأخير ودلالة هذه القضية على النص الشعري يبدأ الكتاب بفصل يعدد فيه قواعد الشعر، وهي عنده أربع: أمر، ونهي، وخبر، واستخبار، موضحة بالشواهد والأمثلة، ولا يعدو مفهومه لهذه الأشياء أو الأساليب الفهم العادي والسائد. ثم يذكر فنون الشعر التي شملت المدح والهجاء، والمراثي، والاعتذار، والتشبيب، والتشبيه، واقتصاص الأخبار. بعد ذلك تناول عدداً من قضايا البلاغة دون الاهتمام بخصوصية هذه المصطلحات، أو بلاغيتها، كالتشبيه الجيد، والإفراط أو الغلو في المعنى، أو المبالغة، وجيد المدح، ثم لطافة المعنى، معتمداً على إيراد تعريف مختصر لكل قضية، وعلى إيراد الكثير من الشواهد والأمثلة.

ولم ينسَ الاستعارة التي شغلت حيّزاً كبيراً في نقدنا العربي، فعقد لها فصلاً، ومثلها حسن الخروج، أو حسن التخلص، ثم الطباق وهو ما سمّاه مجاورة الأضداد، وربما كان ثعلب أول من استخدم هذه التسمية.

ومن الامثلة على ذلك ما ورد عنه اثناء تفسيره لقول الخنساء:

اعين الا فابكي لصخر بدرة
اذا الخيل من طول الوجيف اقشعرت

فقد علق عليه بقوله:

«روي «عرام»: «من طول الطراد»

الدرة: درة اللبن، وانما ارادت الدموع ها هنا فاستعارته، ارادت: دمعا كثيرا يدر كما يدر اللبن»[2].

ومن النماذج التي تؤكد عنايته بأسلوب التشبيه تعقيبه على ابيات الخنساء في قولها:

بفيلق الخيل تنزو في اعنتها
مثل الاسود توافت عند جرجار[3]

اذ علق عليها ثعلب بقوله:

«الفيلق: الجيش الكثير

شبهت الفرسان لجرأتها واقدامها بالأُسُود».

يأتي تعليق ثعلب احساسا منه بجمالية التشبيه في النص الشعري التي تاتي من جودة الصياغة اللغوية بحسن ترتيب اللفظ ومعناه، وتناسقه الدلالي ففيهما تبرز قدرة الشاعر، وقد قرر ليبنتز ان المعرفة العقلية المتميزة معرفة فنية الى حد ما وان التصورات المركبة اكثر شاعرية من الافكار البسيطة[4].

المبحث الثاني: قضايا النقد اللغوي

اولاً: المعيار اللغوي:

كان لهذا المعيار حضور واسع في المؤلفات اللغوية التي خلفها ثعلب وربما يعود السبب الى تأثر الناقد بثقافته اللغوية والمتصفح لهذه الكتب يرى اهتمامه بتلك المسألة التي نحن بصددها، وخاصة في كتاب الفصيح ومنها: أثر الحركات في اختلاف المعنى؛ حيث قدم لنا أمثلة عربية تثبت تَغَيُّرَ المعنى بتغير الحركة.

فضلا عن هذا اهتم ثعلب بقضية الفروق اللغوية، وهي مسالة تتعلق بأهمية ومنزلة اللغة العربية التي اهتم بها العلماء منذ اواخر القرن الهجري الاول فقد احاطوها بعناية كبيرة رغبة منهم بتصفيتها من اللحن، ومن مظاهر هذا الاهتمام جمع الفاظ اللغة وتدوينها فيما عرف بالمعجمات[5].

ومن الامثلة على ذلك شرحه لقول الشاعر:

هريت الشدق رئبال اذا ما عدا لم تنه عدوته بزجر

فقد علق عليه بقوله:

«هريت: واسع شق الشدق، والرئبال في مشيه يتبختر عدا على ما يريد لا ينهى بزجر

هرت ثوبه وهرده: اذا شقه

والرئبال: (يهمز ولا يهمز)

---

(١) شرح ديوان الخنساء: ٢٥٧. -١

(٢) شرح ديوان الخنساء: ٢١٩٠

(٣) شرح ديوان الخنساء: ٣٠٣. -٣

(٤) قصة علم الجمال: ٢٩، مراد وهبة، دار الثقافة الجديدة، القاهرة الطبعة الاولى، ١٩٩٦م. -٤

(٥) ينظر كتاب الفصيح: ١٣٠. ٥

قال ابو عبيدة: يقال: خرج يترابل، اي يمشي مشية الاسد[١].

ثانياً: شرح الشعر:

لعلّ المتتبع لمؤلفات ثعلب الكوفي يلاحظ ان اكثر من مؤلف لديه يقع تحت عنوان شرح ديوان ومنها شرح ديوان الاعشى وشرح ديوان الخنساء وما الى ذلك من اعماله الأدبية، وثعلب في عمله هذا قدم خدمة كبيرة للعملية الأدبية من خلال ايجاد الخطوة الاولى من خطوات النقد والمتعلقة بفهم النصوص الادبية وايضاح معناها للمتلقي، اذ ان هذه العملية تساعد على فهم النص من خلال تفسيره، ويستند شرح الشعر عنده الى ثقافة لغوية ومعرفة واسعة بالغريب وبكلام العرب فضلا عن معرفته بفنون الشعر وطرقه، ومن الامثلة على ذلك شرحه لقول الخنساء:

وناجيـــة نقـــب خفهـــا غـادرت بالخـل اوصـالها[٢]

فقد شرحه بقوله:

رواية (يعقوب): كأتان الثميل) وروى: (بالمحل)

وقالوا: هو خطا، انما هو بالخلّ، يريد ان يتخلل الطُّرق، والنقبة: المتجوبة الخفّ، الخفية، تجوب خفها: صار فيه جوبُ اي خروقُ.

قال (مبتكر): غادرت بالخلِّ، اي حسرتها فتركتها حسيرا، اي لانها حسير تموت فتكون اوصالها بعد ذلك من الدهر ملقاة حيث حُسرت.

قال (الاصمعي): ناجية: ناقة سريعة، والنّجاء: السرعة، ويقال ايضا ناقة نجاة[٣].

لقد كان ثعلب الكوفي يقف كثيرا على التعبير الناجح، فهو يحاول الاقتراب من العمل الادبي وابراز الجيد والرديء فيه، وهو يذكر ان الشاعر يستعمل بعض الالفاظ استعمالا جيدا، وهو ما يتماشي ومنهج ثعلب في تفضيل استعمال الفصيح وترك العامي والرديء والدعوة الى معرفة اللغة واساليبها.

فضلا عن هذا نبّه ثعلب الكوفي الى ظواهر لغوية مهمة اثناء شرحه للأبيات الشعرية ومن ذلك حديثه عن لفظة (الغَمْر) الواردة في قول الشاعر:

اذ عقب عليها بقوله:

«والغمر الكثير، أي كان إذا أعطى، أعطى كثيرا، والباع: سعة الخُلُق»[٤].

ويقول في موضع اخر:

«والغمر: الواسع الخُلُق»[٥].

وهو هنا يشير الى ثراء اللغة وان على الكاتب ان يفطن الى هذا الثراء في استعماله للمفردة، من خلال السياق الذي ترد فيه تلك المفردة.

كذلك أشار إلى ظاهرة المد والقصر في قوله:

مشى السبنتي الى هيجاء مضلعة لهـا سـلاحان: انيـاب واظفـارُ

السبندي والسبنتي: النمر

والهيجاء: تمد وتقصر

ثالثاً: النقد العروضي:

ساهم ثعلب الكوفي في مجال النقد العروضي وقد كانت له وقفات امام الابيات الشعرية التي اضطر فيها الشعراء الى تغير بنية الكلمة لكي تتفق والوزن العروضي وهو ما بات يعرف بالضرورة الشعرية الضرورات الشعرية، أو الضرائر، أو الجوازات الشعرية هي رخص أعطيت للشعراء دون الناثرين في مخالفة قواعد اللغة وأصولها المألوفة، وذلك بهدف استقامة الوزن وجمال الصورة الشعرية، فقيود الشعر عدة، منها الوزن، والقافية، واختيار الألفاظ ذات الرنين الموسيقي والجمال الفني... فيضطر الشاعر أحيانا للمحافظة على ذلك إلى الخروج على قواعد اللغة من صرف ونحو.

هذه الضرورات لا تستوي في مرتبة واحدة من حيث الاستساغة والقبول؛ فبعضها جائز مقبول، وبعضها الآخر مستقبح ممجوج، ومنها ما توسط بين ذلك؛ فكلما أكثر الشاعر من اللجوء إليها قبح شعره. والضرورات الشعرية كثيرة، متنوعة فمنها ضرورات الزيادة، وضرورات النقص، وضرورات التغيير.

ومن الأمثلة على ذلك تعليق الناقد على قول الشاعر الاعشى:

فتستيقنا انا اخوكم واننا اذا نتجت شهباء يخشون فالها

فقد علّق عليه بقوله:

«الفال الذي يزجر ترك الهمزة للقافية»[٦].

وحديث ثعلب هنا يكشف عن عنايته بلغة النثر والشعر من حيث اتفاقُهما أو اختلافهما في بناء الألفاظ وصياغة العبارات، وكذا الخضوع لقواعد اللغة، والنحو حسب طبيعة كلٍّ منهما، ويبدو من خلال كلامه ان هذا النوع من الضرورات المَمدوحة والحسنة فالأولى اقتصار الشاعر على الأخذ بالحسن من الضرورات، وهي التي يكون فيها الحذف أو الزيادة، أو التغيير الذي يطرأ ضمن القياس المعروفة نظائره، والذي يهدي فيه التركيب إلى المراد بسهولة لكثرة شواهده وأمثلته.

---

(١) شرح: ديوان الاعشى: ١١٨٤

(٢) شرح ديوان الخنساء: ٩٨. -٢

(٣) شرح ديوان الخنساء: ٩٨. -٣

(٤) شرح ديوان الخنساء: ١٢٩. ٤

(٥) المصدر نفسه ٥

(٦) ٢٢٢ شرح ديوان الاعشى: ٦

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الغنية والمفيدة مع مؤلفات ثعلب الكوفي آن لنا الأوان ان نسجل اهم النتائج التي توصل اليها البحث وكما يلي:

١-اهتم البحث اهتماما خاصا بثقافة هذا العالم وتكوينه العلمي وخاصة ما يتعلق بثقافته النقدية التي ظهرت جليّه في اغلب مؤلفاته وتنبه البحث الى العصر الذي عاش فيه الناقد، فقد كان عصر الفلسفة والترجمة حيث عرف العرب كل الثقافات الاجنبية في ذلك الوقت واستفادوا منها كثيرا، مما ادى الى توسع المدارك وكثرة الدراسات ومنها الدراسات البلاغية والنقدية.

٢-استطاع ثعلب من ملاحظاته في مساعدة الشعراء على ان يضعوا أيديهم على بعض الأخطاء والعيوب في المفردات والتراكيب اللغوية، وهو بذلك يرشد الشعراء إلى الطريق الصحيح في الاستعمال اللغوي حتى لا يعودوا لمثل ما اخطأوا فيه وبذلك يسلم الشعر من الخروج على الاستعمال اللغوي السليم.

٣-اظهر البحث ان ثعلب الكوفي التزم منهجا محدد المعالم اتخذه لقياس الحكم على صواب المفردة او خطأها، وانه كان يعتمد على مدى جريان اللفظة على افواه الفصحاء، وهذا يدل على مدى تشدد ثعلب بهذا الخصوص حرصا منه على سلامة اللغة العربية.

مصادر الدراسة

- ابو العباس ثعلب ناقدا، الدكتور سليم السلمي، الشبكة العالمية للانترنت.
- كتاب الفصيح، لابي العباس ثعلب، تحقيق: الدكتور عاطف مدكور، دار المعارف، ١٩٨٤م.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ)، تحـ: علي السباعي، وعبد الكريم العزباوي، ومحمود غنيم، بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣ م.
- جهود ثعلب في بيان أثر الحركات في اختلاف المعنى، شادية بيومي حامد، كلية اللغات، جامعة ماليزيا.
- ديوان الاعشى، شرح ابي العباس ثعلب، دار صادر.
- ديوان الخنساء، شرح ثعلب ابو العباس، تحقيق الدكتور انور ابو سويلم، جامعة مؤته، دار عمار.
- قصة علم الجمال، مراد وهبة، دار الثقافة الجديدة، القاهرة الطبعة الاولى، ١٩٩٦م.
- مجالس ثعلب، لابي العباس احمد بن يحيى ثعلب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، (ت ٩١١ هـ)، تحـ: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، القاهرة، ط٣، د. ت.
- مقياس الفصاحة في القرن الخامس الهجري، د. محمود عبدالله الجفال الجامعة الأردنية
- من اسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٥م.
- راج الأدباء، القرطاجني (أبو الحسن حازم القرطاجني ت ٦٨٤هـ)، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦م.
- الموشّح، لأبي عبد الله المرزباني (ت ٣٨٤ هـ)، تحـ: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، ١٩٦٥ م.
- النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، د. نعمة رحيم العزاوي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨ م.